

تصنيف محاولات تجديد النحو- قراءة في المصطلحات والدلالات-

الدكتور: عمر بوقمرة

البريد الإلكتروني: Omar_abouhadjer@hotmail.fr

قسم اللغة العربية كلية الأدب واللغات

جامعة حسيبة بن بوعلي - الشلف -

الملخص:

تواجه اللغة العربية وهي على مدارج القرن الحادي والعشرين جملة من التحديات، ولعلّ أصعبها وأخطرّها تلك المتعلقة بمواكبة روح العصر ومتطلباته المتزايدة بوتيرة رهيبية، ولن يتم ذلك إلا بتخليصها وإنقاذها من كل ما يكتند سبيلها من معوقات، فاللغة العربية يصدق عليها ما يصدق على جميع اللغات الإنسانية من نواميس النشوء والارتقاء والتطور، تطور لا ينحصر في إنتاج المفردات بالأنظمة الداخلية للغة ذاتها، ولا في اقتراض المصطلحات الأجنبية طوعا وكرها، - وهذا أمر طبعي درجت عليه جميع اللغات منذ القدم ولا زالت تقيم عليه إلى يومنا هذا - بل يتعداه إلى ظهور تراكيب جديدة تقع في حمى النحو وتنتهك محارمه، وصاحب ذلك محاولات ودعوات لتجديد النحو وإحيائه، بل وتخليصه من أغلال النحو القديم بغية تسهيله على الناشئة وتجييبه إليها، وإعادة ربط وشائج المودة بينه وبين مظانّه الأولى برفق ولين، حتى غدت - مشكلة التجديد - معضلة قومية تؤرق الجميع. فتداعت لها أقلام بعض الباحثين المحدثين، واختلفت طرائق التجديد وتنافرت لدرجة التضاد. وهذا البحث يجتهد في استجلاء تلك الطرائق ومضامينها الدلالية، ومدى نجاعتها في بعث اللغة العربية من جديد.

الكلمات المفتاحية: تجديد النحو ; المصطلحات ; الدلالات

يمكن تقسيم محاولات تجديد النحو على كثرتها إلى ثلاثة اتجاهات رئيسة وهي:

- 1) الاتجاه الأصولي السلفي: ويدعو أصحابه إلى إحياء العمل بالنحو القديم كما ورثوه والزهد في كتب المتأخرين، فالتجديد عندهم إحياء ما اندرس من العمل بقواعد النحو.
- 2) مذهب التهذيب والتشذيب: ويدعو أصحابه إلى تأليف ووضع كتب حديثة تتواءم وقدرات الناشئة من الطلبة وفق مراحلهم الدراسية.
- 3) مذهب الانقلاب والتجديد: ويدعو أصحابه إلى التحرر على قواعد النحو وأصوله حذفًا وزيادة، هدمًا وبناء، وفق ترتيب جديد لم يُعهد من قبل.

1 - تجديد يخدم اللغة :

فالأتجاه الأول (السلفي) يرى أن اللغة العربية أثبتت طوال ما يزيد على خمسة عشر قرنا قدرتها على الاستمرار والحياة دون عناء أو كلفة لا عليها ولا على مستعملها، فالمتقف العادي في القرن الحادي والعشرين إذا قرأ أو سمع بيت امرئ القيس الذي قاله قبل خمسة عشر قرنا.

أغرك مني أن حبك قاتلي وأنك مهما تأمري القلب يفعل

لم يجد صعوبة في فهمه ولا حاجة داعية إلى استشارة معاجم اللغة وغريبها، أو قرأ الأستاذ على طلبته بيت أبي فراس الحمداني الذي قاله منذ ألف عام.

نعم أنا مشتاق وعندي لوعة ولكن مثلي لا يذاع له سُر

لما سأله أحد عن معنى البيت ليسر كلماته وقرب معانيها، فليس صحيحا ما يشاع عن اللغة العربية بأنها اللغة الوحيدة على وجه الأرض التي لم تتطور منذ ألف وخمسمائة عام، فكون الفاعل مرفوعا والمفعول منصوبا لا يعني أننا أمام مستوى لغوي واحد، فللغة العربية من وسائل التطور كالاشتقاق والنحت، والتعريب والقياس، والتضمن والمجاز وغيرها، ما يضمن لها التطور والتجديد مع الحفاظ على الهيكل العام، ولا يمكن لأحد أن يدعي أن اللغة التي نستعملها اليوم في جامعاتنا ومدارسنا تعد نموذجا مَحْنَطًا للغة التي كان يستعملها الجاحظ في القرن الثالث الهجري، أو أبو حيان التوحيدي في القرن الرابع الهجري، أو عبد القاهر الجرجاني في القرن الخامس الهجري، أو حتى طه حسين والعقاد والرافعي وغيرهم، لقد تطورت العربية تطورا هائلا حتى جعلنا نظن أنه لو بعث الجاحظ من مرقده واطلع على صحفنا المعاصرة لتملكته الحيرة أمام لغة يعرف قواعدها وحروفها وبعض كلماتها، ولكن لا يعرف بعض معانيها لما أصابها من تطوير الدلالة وتخوير التركيب.¹

نموذج ناجح:

وهنا يحسن بنا سوق تجربة تجديدية ناجحة أفضت إلى إنعاش اللغة العبرية، فقد ظلت العبرية لغة شبه دينية لقرون طويلة لا تستعمل إلا في نطاق ضيق جدا، لكن مع أواسط القرن التاسع عشر ظهرت مجموعة من الشباب اليهود الأوروبيين أسست حركة لإحياء اللغة العبرية كان من أبرز قادتها "أليعازر بن يهودا" الذي أطلق شعارا نحن أحوج ما نكون إلى رفعه وهو: "لا حياة لأمة بدون لغة"، ودعا إلى إحياء العبرية عند الأجيال الجديدة في مخاطباتهم اليومية، وكانت الفكرة أقرب إلى المستحيل حتى عند غلاة اليهود إذ كيف يمكن إحياء لغة ميتة لا يجيدها إلا بعض المتخصصين ولا تستخدم إلا في دور العبادة، وتفتقر إلى معظم مفردات الحياة المعاصرة، وتتمنع حتى على رجال الدين أنفسهم، فكيف تصبح لغة الأطفال في المدارس، والطلبة في الجامعات، وتُجرى بها البحوث العلمية؟ وكيف تصير لغة الإعلام والاقتصاد والسياسة؟ وكيف لهذا الخيال المعرق في المثالية أن يتحقق واليهود حينها مشتتين في أنحاء المعمورة على أكثر من مائة دولة، يستعملون ثمانين لغة حية ليس فيها للعبرية ذكر إلا في شعائهم وصلواتهم لمن بقي منهم على حبل منها؟.

إنه مشروع جلب السخرية لأليعازر بن يهودا من أصدقائه، ولكنه لم يلتفت لذلك وقرر المضي قُدُما في أولى خطوات المشروع ومراحله فهاجر إلى فلسطين مع أسرته عام 1881م، وأنشأ أول بيت يهودي تُفرض فيه العبرية لغة

للتخاطب اليومي في كل الأحوال، وعلى كل أفراد الأسرة، وساعده أفراد أسرته وظل على هذه الحال طيلة أربعين عاما رغم سخرية الناس منه.

أسس رابطة أو جمعية للمتكلمين بالعبرية في فلسطين، وجعل داره مقرا لها يلتقى فيه الشباب المتحمسون للفكرة يتواصلون فيها بلغتهم العبرية، ثم أصدر مجموعة من الصحف باللغة العبرية في القدس، وخصص بعضها للأطفال على أن يسمى أبطال القصص بأسماء عبرية، كما عكف على إنجاز مشروع كبير وخطير يتمثل في تأليف قاموس اللغة العبرية القديمة والجديدة، استقاه من كتب المتقدمين في العهد القديم، والتلمود، والأدب العبري في بلاد الأندلس، واللغات السامية التي اختار منها بعض المواد وطوّعها للاستعمال الحيّ، وكثيرا ما كان يلجأ إلى خلق مصطلحات جديدة عندما تبخل عليه كتب التراث، واستطاع أن ينجز في حياته تسعة مجلدات كبيرة وأتم إنجاز المهمة تلاميذه، فأوصلوها إلى ستة عشر مجلدا.

وأفلحت دعوته فهب اليهود لإنشاء مدارس حديثة تقدم كل موادها باللغة العبرية، وتهتم بتاريخ بني إسرائيل القديم والحديث، وكان حرصهم زائدا على ألا تُذكر أسماء الأماكن إلا بالعبرية، فالقدس هي "أورشليم"، والضفة الغربية هي "السامرا"، وغزة "يهودا"، و نابلس "شكيم"، والخليل "حبرون"، و بير سبع هي "بئر شفيح" والقائمة مفتوحة، ومازالت هذه سياسة إسرائيلية مستمرة حتى تثبت في الأذهان أن هذه الأماكن يهودية خالصة ولا حق فيها للعرب والمسلمين.

لقد مثّلت التجربة العبرية الناجحة أفضل محاولة لتماسك الهوية من خلال إحياء لغة ميتة كان يُرى ذلك ضربا من الجنون، وبدعا من الفعل دفعت به أرحام حماسة الشباب إلى الوجود، وسرعان ما تكتب له شهادة الوفاة، ولكن الذي حدث هو العكس فما هي عناصر النجاح التي انطوت عليها تجربة أليعازر بن يهودا؟

إن أول عناصر النجاح في تقديرنا هو ذلك الشعار الذي رفعه علما لتجربته "لا حياة لأمة بدون لغة"، فالشعار هو الهدف وتحديد الهدف ضرورة في كل عمل، وحتى مفردات الشعار تفصح عن معادلة مفادها: أنه لا حياة لأمة بدون لغة، ولتحجي الأمة اليهودية لا بد من إحياء اللغة العبرية، وروح اللغة هو استعمالها على أوسع نطاق في كل مجالات الحياة، وبقدر سعة الاستعمال تكون قوة الحياة والنضارة، وكانت أول مراحل الطريق الهجرة إلى فلسطين مع أسرته، فسخر بيته كنادٍ يلتقي فيه المتحمسون للفكرة، يمارسون فيه انغماسهم اللغوي، ثم تطور الأمر فأصدر مجموعة من الصحف باللغة العبرية في القدس راعى فيها حتى الناشئة - وإن لم يكونوا هدفه الأول -، ثم أتبع ذلك بالشروع في إنجاز معجم كبير باللغة العبرية، يقوم أساسا على نخل التراث اليهودي وبعثه، وإن احتاج إلى الاستعارة من لغات سامية أخرى أو خلق بعض المصطلحات فعل ذلك، واستطاع أن ينجز أكثر من نصف المشروع (9 مجلدات)، ليواصل المهمة تلاميذه من بعده (16 مجلدا).

وهكذا أخذت تتفتق دائرة الاستعمال من الأسرة إلى النادي فالجتمع لتسري في أوروبا، فهبّ اليهود لإنشاء المدارس التي تعنى بتدريس كل المواد العلمية منها والإنسانية بالعبرية دون عقدة نقص أو شعور بالدنيّة، وها هي اليوم العبرية أشد ما تكون حياة تُدرّس بها كل العلوم الحديثة من طب، وهندسة، وكيمياء، وفيزياء، فضلا عن العلوم الإنسانية بجميع فروعها، بما تعقد المؤتمرات، وبما تلقى المحاضرات، وبما يخطب ساستهم في كل الأوقات، مع أنهم يجيدون الإنجليزية

والفرنسية والإسبانية والروسية، لكن هويتهم وانتماءهم يمنعاؤهم من استعمالها حتى غدت الجامعات اليهودية في طليعة جامعات العالم، بل فاق ما تنتجه جامعاتهم من البحوث بحوث الجامعات العربية مجتمعة كلها، فهل الأمة العربية أقل شأنًا من هذه الشرذمة من الشباب المتحمس؟ وهل اللغة العبرية أوفر حظًا من العربية؟ أعتقد أنه لمن دواعي الحياء أن نعقد مقارنة بين لغة اختفت من المعاملات اليومية لأهلها وانزوت في معابدهم تترقب تشييعها في مقبرة الآثار، وفي لحظة صحوّة قررت الضمائر الحية من أبنائها الشروع في علاجها وإحيائها بدل الوداع الأخير، وهم قلة أذلة عزين على أكثر من مائة دولة، قد كفتهم اللغات الأوروبية المختلفة، وبين لغة روى لنا تاريخ الألسنة الطبيعية أن البشرية لم يسبق لها أن عرفت لغة من لغاتها استطال بها الزمن فعمرت فيه سبعة عشر قرنًا دون أن تنسلخ عن هيكلها البنائي تحت حركة التاريخ وسلطان التبدل، أو أن تلتحق بالألسنة الموات، إنها تقدم نموذجًا فريداً بين أيدي علماء اللسانيات بامتداد تاريخها وتداولها التلقائي في المؤسسات التعليمية، وفي أجهزة الإعلام المرئي والمسموع، وفي كل المحافل الرسمية، وفي كل قنوات التواصل الثقافي والفكري التي من أخطرها الكتاب والفضائيات الجديدة.²

2 - تجديد ييسر اللغة:

أما الاتجاه الثاني (مذهب التهذيب والتشذيب) فهو يدعو إلى وضع كتب حديثة تراعي المراحل التعليمية للناشئة، وهذه الوجهة لا أظن أن أصحاب الاتجاه الأول (السلفي) يدفعونها أو يقفون في وجهها، بل يتخذونها مراقبة للتجديد الذي ينشدونه، وقد انقسم التأليف النحوي في وقت مبكر إلى قسمين : قسم علمي أو نظري غرضه التفكير في فلسفة النحو وتبيان أصوله التي أسس عليها، وقسم تعليمي غرضه تيسير النحو وتبسيطه على الناشئة.

فألف الكسائي ت189 هـ زعيم المدرسة الكوفية كتابه "مختصر النحو"، وألف الأخفش الأوسط سعيد بن مسعدة ت215 هـ - تلميذ سيويه وحامل كتابه ومُثْلِيه على طلبته - كتابه "الأوسط في النحو"، ومع ذلك فقد كانت هذه المختصرات مشوبة بعلل النحو وتأويلاته وأقيسته، ما دعا الجاحظ إلى توجيه نصيحته الذهبية للمعلمين داعياً إياهم إلى الاختصار على قواعد النحو الأساسية التي تضمن السلامة من اللحن، وعدم شغل قلب الصبي بعويص النحو الذي لا يحتاجه شاعر في شعره، ولا كاتب في كتابته، فقال : "أما النحو فلا تشغل قلب الصبي منه إلا بقدر ما يؤديه إلى السلامة من فاحش اللحن، ومن مقدار جهل العوام في كتاب إن كتبه، وشعر إن أنشده، وشيء إن وصفه، وما زاد على ذلك فهو مشغلة عما هو أولى به... وإنما يرغب في بلوغ غاية النحو ومجاوزة الاقتصاد فيه... من ليس له حظ غيره، ولا معاش سواه، وعويص النحو لا يجري في المعاملات ولا يضطر إليه في شيء"³.

وقد عمل النحاة بهذه النصيحة فطفقوا يؤلفون للناشئة المتون والمختصرات منذ القرن الثاني للهجرة إلى يومنا هذا، ولعل مختصراً لم ينل ما نالته المقدمة الآجرومية من الشهرة لمؤلفها ابن آجرؤم المغربي ت723 هـ، إذ ظل لمتنها الحظوة في تعليم الناشئة النحو في كل أقطار العالم العربي من خليجها إلى محيطها، فكثرت عليه الشروح، وهو متن صغير الحجم لا يتجاوز عشرين صفحة، أي جزءاً من القرآن الكريم، وجلّي أن الغرض من الاختصار هو إسعاف الناشئة بقواعد النحو الأساسية التي لا غنى لطالب العربية عنها في إقامة اللسان وتثقيفه.

وقد أقبل المستشرقون على هذا الكتيب طبعا ونشرا، فطبع بروما في أواخر القرن السادس عشر، ثم ترجم إلى اللاتينية والفرنسية والإنجليزية⁴.

ويكفي شهادة لهذه الخطوة الكبيرة التي نالها متن الآجروميّة أن يعترف المفكر اللساني الكبير نواوم تشومسكي أنّه درسها في مرحلة تكوينه الدراسي الجامعي، ففي حوار أجراه معه مازن الوعر، ونشرته مجلة اللسانيات الصادرة عن معهد العلوم اللسانية والصوتية في الجزائر عام 1980م، سأله مازن الوعر: "نعتقد نحن العرب أن الجهود التي بذلها اللغويون العرب في علم اللسان البشري في العصور المتقدمة إنما هي جهود مهمة أسهمت إلى حدّ كبير في بناء علم اللسان الحديث، ما هي آراؤكم حول هذه القضية؟" فأجاب نواوم تشومسكي: "قبل أن أبدأ بدراسة اللسانيات العامة كنت أشتغل ببعض البحوث المتعلقة باللسانيات السامية، وما زلت أذكر دراستي للآجروميّة منذ عدة سنوات خلت، أظن أنّها أكثر من ثلاثين سنة، وكنت أدرس هذا مع الأستاذ "فرانز روزنتال" الذي يدرّس الآن في جامعة يال، لقد كنت وقتذاك طالبا في المرحلة الجامعية أدرس في جامعة بنسلفانيا"⁵.

لقد أشاد شوقي ضيف بصيحة الجاحظ ونصيحته، وأشاد برودة فعل معلمي النحو الذين استجابوا لها دون أن يسمع لهم حس تنديد، أو ركز اعتراض، تعريضا بالمحافظين، وأشاد بمتن الآجروميّة التي اقتصر على أبواب النحو الأساسية التي تعصم ألسنة الناشئة من الزلل وتجنبها اللحن، ولكن يبدو أنه نسي أو تناسى أن الجاحظ لم يدع إلى هدم قواعد النحو وضرب جهود أجيال من النحاة غرض الحائط بكلمة "تجديد"، بل غاية ما في الأمر أنه دعا إلى مراعاة أحوال المتعلمين وخاصة الناشئة منهم بأن تراعى مستوياتهم وقدراتهم، ونسى أن ابن آجروم عندما دَبَّح متن الآجروميّة لم يقل: هذا هو النحو وما زاد عليه فلا فائدة ترجى منه ولا جدوى من تعلمه.

إن "من الأخطاء الجوهرية التي نقع فيها ونحن نقدم اللغة العربية للأجيال المعاصرة - أننا نقدم - من ناحية هذه اللغة باعتبارها كتلة واحدة تمتد امتدادا رأسيا أكثر من خمسة عشر قرنا، ومن ناحية ثانية نعامل الذين يتعلّمونها على أنّهم كتلة واحدة أو مستوى واحد من المتعلمين امتدادا أفقيا من الفلاح والعامل الفتيّ إلى المحاسب والمهندس، والطبيب والمحامي والصحفي والأديب، وصولا إلى العالم في النحو والمتخصص في اللغة، وذلك كله خلط يسيء إلى اللغة وإلى متعلمها على حد سواء"⁶.

فلا أحد إذن ينكر الفصل بين المستويات التعليمية أفقيا ورأسيا، وما أظنّ أنّ هذا الأمر يخفى على هامة في العلم كشوقي ضيف فمن أين أوتي الرجل إذن؟ الجواب على هذا السؤال يكمن في مقدمة كتابه حين يقول: "ونخطئ خطأ كثيرا إذا ظننا أنّ شيئا من ذلك أصاب ألسنة الناشئة - عجزها واعوجاجها - جعلها تعجز عن النطق السديد بالعربية، إنّما مرجع هذا العجز أو القصور إلى النحو الذي يُقدّم إليها، والذي يرهقها بكثرة أبوابه وتفرعاته وأبنيته وصيغته الافتراضية التي لا تجري في الاستعمال اللغوي..."⁷.

إني أعتقد جازما أن الاختلاف في تشخيص الداء حتما يفضي إلى الاختلاف في وصف الدواء، وهذا الذي حصل بين المحافظين ودعاة التجديد، ومنهم شوقي ضيف، فهو يرى أن مشكلة الضعف اللغوي ناجمة عن نظام النحو وقواعده العويصة التي أحرصت ألسنة الناشئة عن أداء العربية أداء صحيحا فصيحاً، ومن ثم كان العلاج هو نظرة جديدة إلى

النحو تقوم على القدح في الأصول النحوية القديمة، وفتح باب الاجتهاد في محاولة صريحة لاستبدالها، "فما زادت على أن كانت هذه الاجتهادات في الغالب مداميك إضافية أثقلت كاهل النحو وبنياته وغلقت أبواب العمل وفتحت الجدل"⁸. وقد أحسن صنعا عبد السلام المسدي حين كشف الأسباب التي جعلت بعض الناس يتظلمون من صعوبة اللغة العربية، علنتهم اضطراهم لفهم العربية كي يقرؤوها، بينما الناس في الأمم الأخرى يقرؤون لغاتهم كي يفهموها، "ومصدر هذا الظن الواهم من ضريين: الأول أن قائله غير واع بأن العربية الفصحى بالنسبة إلى كل عربي في أيامنا هي لغة مكتسبة بالتعلم وليست مكتسبة بالأوممة، ولذلك فالحكم الذي يصدره - سواء أصبح أم لم يصح - هو حكم على آليات الاكتساب من تعلم وترية وتلقين أكثر مما حكم على نظام اللغة، والثاني أن ما يقوله لا يمكن أن يكون حكما على اللغة العربية، وإنما هو أقرب الاحتمالات حكم على نظام تمثيلها الخطي أي كتابته"⁹.

3 - تجديد فيه يختصمون :

أما الاتجاه الثالث فبه التصق مصطلح التجديد - وهو المراد في بحثنا - ولكن بمفهوم جديد محدث يغير تماما مفهومه عند أنصار الاتجاه المحافظ، إنه يطمح إلى تغيير منهج البحث في النحو أملا في الوصول إلى نحو جديد يقوم على قواعد جديدة، وفي مشروعيته وجدواه احتدم الصراع بين المحافظين من جهة ودعاته من جهة أخرى.

حوار هادئ مع إبراهيم أنيس:

يعد أنيس من أئمة هذا الاتجاه ودعاته الأوائل، فهو يرى أن الضعف اللغوي الذي أصاب اللغة العربية والناطقين بها على حد سواء ناجم عن خلل في نظامها النحوي الذي يحتاج إلى إصلاح شامل، ومن ثمّ راح يراجع هذا النظام منتقدا تلك المقولات القديمة التي يراها أصحاب الاتجاه المحافظ من المسلمات التي لا تقبل جدلا. إنه منهج يقوم على نقد المقولات النحوية القديمة وإعادة صياغتها من جديد، ولو أفضى ذلك إلى نحو يختلف تماما مع ما ورثناه عن الخليل وسيبويه والكسائي وغيرهم. لقد اتضح أنّ هذا الاتجاه يناقض الاتجاهين السابقين تماما.

موقفه من اللحن والإعراب:

وحتى لا تنتهم بالجنانية عليهم سأسوق موقف إبراهيم أنيس من ظاهرة اللحن، فبعد أن ساق جملة من الآيات الشعرية والعبارات النثرية تُسبب لأصحابها الخطأ واللعن فيها خلص إلى أن الموقف من هذه الروايات يدور بين أمرين:

(1) إما التسليم بصحة هذه الروايات وثبوتها سندا وأن كلمة اللحن كانت تعني غالبا الخطأ الإعرابي، وحينئذ لا مفر من أن نعدّ ظاهرة الإعراب من الظواهر التي لا تمت للسليقة اللغوية بصلة، لأن ابن اللغة التي يحملها سليقة يستحيل عليه الخطأ في ظواهر تلك اللغة دون أن يعرف ذلك، فهو لا يتصور وقوع الخطأ من صاحب السليقة اللغوية في أيّ من ظواهر لغته في مستواها الصوتي أو الصرفي أو التركيبي أو الدلالي بأي حال من الأحوال، ويستدل على هذه الوجهة بالإنجليزي الذي لا يخطئ في لغته، ونحن في كلامنا بالعامية لا نخطئ فإن زلّ للسان في لحظة ارتباك أو تعلم رجعا عن هذا الزلل في لمح البصر .

(2) وإما أن ننكر هذه الروايات في جملتها وأن نقول: إنها من صنع بعض النحاة بعد أن أكملوا أصولهم وقواعدهم رغبة منهم في أن يُظهرُوا كلّ من خالفهم بمظهر العجز، أو أن يتميزوا وينفردوا هم بمعرفة تلك المقاييس الإعرابية، وينالوا بذلك

الخطوة عند السلاطين والأمراء، وما صحّ من تلك الروايات ووصفوه باللحن لم يكن خطأ إعرابيا، وإنما كان من الصفات الخاصة لبعض اللهجات التي تحاشاها أرباب الفصاحة.¹⁰

لقد خيرنا إبراهيم أنيس بين أمرين يفضي كل منهما إلى نتيجة واحدة وهي إنكار اللحن بالمعنى الذي اتفق عليه علماء اللغة قدماءهم ومحدثوهم، وهو الخطأ في استعمال اللغة أصواتها وصرفها ونحوها ومعاني مفرداتها¹¹، وهذان الأمران هما إما التسليم بصحة هذه الروايات، وحينئذ لا بد من إنكار الإعراب كظاهرة من ظواهر العربية لها علاقة بالسليقة اللغوية، وهذه النتيجة مبنية على حجتين هما:

- 1) استحالة وقوع الخطأ من صاحب اللغة بالسليقة في أي مستوى من مستوياتها.
- 2) وإن حدث وأن وقع فسرعان ما يُتدارك ذلك الزلل في لمح البصر أو أقل، وقد استدلل على هذا بأن الإنجليزي لا يخطئ في لغته، ونحن عندما نتكلم بالعامية نندرك أخطأنا بسرعة، وإما إنكار هذه الروايات ونّتهم النحاة بوضعها إجمازا لغيرهم، وفرضا لسلطانهم عليهم، وطلبا للخطوة عند أمرائهم، وما صحّ منها فهو لغات لبعض القبائل التي كانت تختلف عن اللغة النموذجية الأدبية والتي كان يتحاشاها الشعراء والخطباء والأدباء من عليّة القوم فسميت لحنا. فهل حقا يستحيل على صاحب اللغة سليقة الخطأ في جميع مستوياتها؟ وهل يستحيل على متكلم الإنجليزية أو العامية أن يقع في الخطأ ثم لا يتداركه في لمح البصر؟!

إن من يسمع هاتين الحجتين يتصور أننا نتحدث عن عصمة الأنبياء والرسل في تبليغ رسالات الله، وأنهم لا يُقرؤون على الخطأ، وأن المسألة مجمع عليها لا تحتاج إلى رد أو اعتراض، أظن أن إبراهيم أنيس نسي أنه يتحدث في مسألة هي من أعقد المسائل وأحوجها إلى التريث في إصدار الأحكام الجازمة الجاهزة، فما هو دليله على عصمة السليقيين من مقارفة اللحن؟ وما هو دليله على أن العامي (العربي) والإنجليزي معصومان من الخطأ وإن قعا رجعا في لمح البصر؟ وإذا كان الأمر كما يزعم فكيف يحدث التطور الدلالي؟ ألم يقل في كتابه دلالة الألفاظ: "رأينا أنفا كيف أن كثيرا من ألفاظ اللغات تتطور دلالاتها بمرور السنين وتوالي العصور، ويعيننا هنا البحث عن أسباب ذلك التطور الدلالي أو عوالمه فتراها ذات شطرين: منها تطور لا شعوري يتم في كل لغة وفي كل بيئة ثم لا يفتن إليه إلا بعد المقارنة بين عصور اللغة..."¹² فأين لمح البصر من هذه الأعصر؟

وقد جعل إبراهيم أنيس من عناصر التطور الدلالي "سوء الفهم"، "وذلك حين يُسمع اللفظ أول مرة ويُمنح دلالة غريبة ثم لا يتاح لهذا السامع فرصة لتصحيح خطئه، ثم تترسخ تلك الدلالة الوافدة في ذهنه، وليس من غير الشائع أن تتم هذه الظاهرة بين عدد من الأفراد كلّهم يسيئون الفهم، ويتواطئون على تلك الإساءة فيحدث تطور دلالي مفاجئ يُورث للجيل الناشئ".¹³

فالفرد يخطئ ويسئ الفهم، بل والأفراد يتواطئون على سوء الفهم حتى يشيع ويصير أمرا مقضيا تركز إليه الأجيال الناشئة، ولو كان الفرد ينتبه إلى خطئه ويرجع عنه في لمح البصر لما احتاج إلى تصحيح ناهيك عن الجماعة. "إن اللغة ليست ساكنة فهي في تغير مستمر في أصواتها وتراكيبها وعناصرها النحوية ومعانيها".¹⁴، فمهما أجهد أصحاب اللغة أنفسهم في ضبط أصواتها وقواعدها وتحديد ألفاظها ومدلولاتها، ومهما أجهدوا أنفسهم في إتقان تعليمها للأطفال قراءة

ونطقا وكتابة، ومهما أجهدوا أنفسهم في محاربة اللحن والحدّ من ذيوعه وانتشاره فإنّها لا تلبث - اللغة - أن تحطّم هذه القيود، وتسير في السبيل التي تريد أن تسير فيها غير عابئة بتلك الأغلال، إنّها سنة التطور والارتقاء الطبيعيين التي لا تعترف بالحدود والضوابط.¹⁵

أما الخيار الثاني فقد بُني على التخريص وسوء الظنّ والدعاوى العارية، وإني لأعجب كلّ العجب كيف لمثل إبراهيم أنيس أن يسمح لنفسه باتهام بعض النحاة بوضع تلك الروايات واختلافها رغبة منهم في إعجاز غيرهم، وتفردا بمعرفة تلك المقاييس الإعرابية دونهم؟ فمن هم هؤلاء النحاة الوضّاعون أوّلاً؟ وما الدليل على وضعهم وافترائهم ثانياً؟ طبعاً الجواب لا جواب.

إن اتّهام بعض النحاة يعني بمفهوم المخالفة أن بعضهم الآخر براء من هذه التهمة، وإيهام بأنهم لا يؤمنون باللحن كظاهرة مرضية تنخر جسد اللغة العربية، فنسأله من منّ النحاة ينكر ظاهرة اللحن؟ والجواب: لا جواب، ومن ثم صارت التهمة في الحقيقة موجهة للنحاة أجمعين فهل اجتمعوا على ضلالة؟ سبحانك هذا بهتان عظيم! وهل ترك سيبويه طلب الحديث والفقه إلا بعد أن لحقه التأنيب من شيخه حماد البصري حين لحن؟ يقول ابن هشام: "وذلك أنه جاء إلى حماد بن سلمة لكتابة الحديث فاستملى منه قوله - صلى الله عليه وسلم - : " ليس من أصحابي أحد إلا ولو شئت لأخذت عليه ليس أبا الدرداء". فقال سيبويه: ليس أبو الدرداء، فصاح به حماد: لحت يا سيبويه إنّما هذا استثناء. فقال سيبويه: والله لأطلبنّ علماً لا يلحنني معه أحد ثم مضى ولزم الخليل وغيره".¹⁶

والكسائي زعيم المدرسة الكوفية ما تعلم النحو إلا على كبر، وذلك أنه حادث قوما من الهباريين فلحنوه، فأنف من التخطئة وطفق يتعلم النحو من معاذ الهراء وعيسى بن عمر والخليل وغيرهم.¹⁷ فاللحن لم ينكره أحد من النحاة المتقدمين - فيما أعلم - فكيف يزعم إبراهيم أنيس أنّ بعض النحاة وضعوا هذه الروايات؟ وتزداد الفرية إثماً حين يتهمهم بفعل ذلك طمعاً في نيل الخطوة عند السلطان فحاشاهم أن يكذبوا وحاشاهم أن يفعلوا ذلك ابتغاء عرض من الدنيا قليل، وها هو إمام النحو الخليل على فقره وحاجته يردّ طلب سليمان بن علي عمّ أبي العباس السفاح والي فارس والأهواز حين أرسل إليه بتأديب ولده، فأخرج الخليل إلى رسوله خبزاً يابساً، وقال ما دمت أجدّه فلا حاجة بي إلى سليمان، وسيبويه يموت كمداً بعد تلك المنازلة التي جرت بينه وبين الكسائي¹⁸، وحتى الذين نالوا الخطوة عند السلاطين لا يحقّ لنا اتّهامهم بالوضع والكذب، فهل يحقّ لنا مثلاً أن نتّهم الكسائي بالوضع وهو إمام في القراءة.

إن الحكم على الروايات بالوضع لا يكون بتلفيق التهم والدعاوى العارية وإنما يكون بالنظر في أسانيد روايتها من أهل الاختصاص دون غيرهم. وإن صحت بعض الروايات ولم يجد أنيس محيصاً من إنكارها لجأ إلى التأويل، فقال عمّا وصفوه باللحن إنّّه لم يكن خطأ إعرابياً وإنّما صفة من الصفات الخاصة في لهجاتهم، وهذا الرأي يتفق مع رأي بعض المحدثين الذين وافقوا القدامى على أن "اللحن لم يكن في الجاهلية ألبتة، وكل ما كان في بعض القبائل من خور الطباع، وانحراف الألسنة فإنّما هو لغات لا أكثر".¹⁹

فكأنّ المتقدمين تحرّجوا عن وصف تلك الانحرافات باللحن، وإنّما وصفوها بالشذوذ، علّتهم في ذلك أن المتكلم عهدئذٍ عربي فصيح وإن خالف الوجه المشهور واللغة الأدبية النموذجية فإنّه يتكلم بلغة قبيلته فلا يعدّ ذلك لحناً.²⁰

وهذا الذي نبّه إليه ابن جني بقوله: "إن الشيء إذا اطّرد في الاستعمال وشذ في القياس فلا بد من اتباع السمع الوارد به فيه نفسه، لكنّه لا يُتخذ أصلاً يقاس عليه، ألا ترى أنك إذا سمعت استحوذ واستصوب أدّيتهما بجاهلها، ولم تتجاوز ما ورد به السمع فيهما إلى غيرهما".²¹

غير أن هناك فريق آخر رفض الرأي السابق وذهب إلى أنّ اللحن قد وقع في العصر الجاهلي فقال: "اللحن إذن وجد في اللغة العربية قبل الإسلام وإن لم يكن من طبيعة العرب الخُلص أن يرتكبه فإنّه بقي محصوراً بين هذه الطبقة الضعيفة من المجتمع".²²

فالخلاف بين هذين الفريقين هو خلاف شكلي مصطلحي لا أكثر، وإلا فكلاهما يقرّ باللحن كظاهرة لغوية مرّضية، إلا أنّ ما كان منه في الجاهلية عند الفريق الأوّل شذوذاً، فهو عند الثاني لحن. هذا نموذج واحد من نماذج التجديد سقناه لنستدل به على مفهوم التجديد عند أصحاب هذا الاتجاه. إنه "في دلالاته الأساسية ينصرف إلى نقد أسس المجال المعرفي الذي يتم تجديده أو إعادة تعديل تلك الأسس وتغييرها".²³ وهو ظاهرة نسبية تتحدد نسبيتها على ضوء مجموعة من المحددات وهي:

- طبيعة العلم أو المجال المعرفي الذي يتم تجديده.

- طبيعة اللحظة التاريخية التي ولدت دواعي التجديد.

- طبيعة الفئة المتلقية للتجديد.

- طبيعة المحدد نفسه وقدرته على اكتشاف المتغيرات الجديدة التي أوجبت التجديد، وكذا قدرته على بلورة النموذج الجديد البديل انطلاقاً من وعيّه بجوانب القصور في المجال المعرفي الذي يسعى إلى تجديده.²⁴

فالمجال المعرفي المراد تجديده هو النحو العربي و هو مخّ العربية وقرآنها، أوجد حماية لجناح كتاب الله من الزيغ واللحن في تلاوته والإلحاد في دلالاته، وعلى رسمه ونحجه دُؤن تراث الحضارة العربية الإسلامية وتراكم على مدار خمسة عشر قرناً من الزمن، واستبداله بنحو جديد وقواعد جديدة يعني القطيعة مع هذا الإرث الزاخر، وفصل الأجيال اللاحقة عن تاريخها وإحداث البين بينها وبين هويّتها، وهذا ما لا يرضاه عقل يميز بين المصالح والمفاسد.

واللحظة التاريخية التي خرجت من رحمها حوافز التجديد لا تزيد عمرها عن ثمانية عقود صار ينظر فيها إلى اللغة على أنّها غاية في ذاتها وليست وسيلة إلى غيرها، تأثراً بوجهة نظر اللساني السويسري "فرديناند دي سوسير" الذي أعلن أنه يجب أن ندرس اللغة في ذاتها ولأجل ذاتها. وتأنك طبيعتان مختلفتان بل متناقضتان أغفلها التجديديون، يضاف إلى ذلك طبيعة جمهور المتلقين الذين ينظرون إلى هذا التجديد وإلى دعائهم القائمين عليه بعين الريبة والشك، لما وقع في قلوبهم من حب العربية وإيمانهم بقدرتها على التجدد والاستمرار بالطريقة التي لا تمس جوهر النحو.

إن عجز المجددين عن بلورة نموذج بديل على الرغم من طول المدّة وكثرة المحاولات وتوفير الإمكانيات للدليل قاطع على أن الأمر لم يؤت من بابهِ وأنّ التجديد ما هكذا يكون. إنّ عدم قدرتهم على التمييز بين الثابت والمتحول في النحو العربي لشاهد على أنهم لم يستوعبوا النحو العربي الأصيل، ولم يعطوه حقه من الاجتهاد المفضي إلى الفهم الصحيح، فكانت النتيجة الصورة المشوّهة التي "أدت ببعض معاصرينا إلى الطعن فيما تركه لنا العلماء العرب حتى الأولون

الفتاحل منهم ، فحاولوا أن يستبدلوا أوضاع النحو القديم بشيء تافه استعاروه من النحو التقليدي الأوروبي ، وما استبدلوا في الواقع إلا مصطلحا بآخر لا يقلّ عنه قيمة ومدلولاً²⁵.

تلك أهم المحاولات التجديدية التي ركبها الباحثون العرب المحدثون، وقد اشتد الجدل بين الفريق الأول(السلفي) والثالث(الانقلابي) كلّ يدعي بعث النحو وإحيائه إنقاذا للعربية ونصرة لها، وعلى الرغم من نقلي لبعض الأقوال التي توحى بتخندق مع أنصار الاتجاه الأول. فإني أقرّ أن القول الفصل في المسألة يحتاج إلى مزيد من البحث والنقاش حول الحجج التي اتكأ عليها أنصار الفريق الثاني، والأسس التي أقاموا عليها مذهبهم، لأن الحكم على الشيء فرع عن تصوره، وهذا موضوع بحث لاحق بإذن الله.

مصادر البحث ومراجعته:

القرآن الكريم برواية حفص .

- ¹ ينظر: أحمد درويش، إنقاذ اللغة إنقاذ الهوية، تطوير اللغة العربية، نخبة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 2006م، ص65-66.
- ² ينظر: عبد السلام المسدي: العربية والإعراب، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2010م، ص148-149.
- ³ شوقي ضيف: تيسير النحو التعليمي قديما وحديثا مع نهج تجديده، دار المعارف، الطبعة الثانية، 1986م، ص13.
- ⁴ المرجع نفسه، ص15-16.
- ⁵ عبد السلام المسدي: العربية والإعراب، ص138.
- ⁶ أحمد درويش: إنقاذ اللغة إنقاذ الهوية، تطوير اللغة العربية، ص3.
- ⁷ شوقي ضيف: تيسير النحو التعليمي قديما وحديثا مع نهج تجديده، ص3.
- ⁸ ينظر: عفيف دمشقية، خطى متعثرة على طريق تجديد النحو العربي (الأحفش - الكوفيون)، دار العالم للملايين، بيروت لبنان، الطبعة الثانية، 1982، ص17.
- ⁹ عبد السلام المسدي: العربية والإعراب، ص149، 150.
- ¹⁰ ينظر إبراهيم أنيس: من أسرار العربية ، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، الطبعة الرابعة 2010م، ص173.
- ¹¹ يوهان فك: العربية في اللغة واللهجات والأساليب، مع تعليقات المستشرق الألماني شبيتالز، ترجمة: رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1980، ص243.
- ¹² إبراهيم أنيس: دلالة الألفاظ، ص103 .
- ¹³ المرجع نفسه، ص104.
- ¹⁴ ماجد الصايغ: الأخطاء الشائعة وأثرها في تطور اللغة العربية ، دار الفكر اللبناني ، بيروت ، الطبعة الأولى ، 1990م ص34.
- ¹⁵ ينظر: علي عبد الواحد وافي: اللغة والمجتمع، دار النهضة، مصر، القاهرة، 1971م، ص110.109.
- ¹⁶ أحمد الطنطاوي: نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة، ص80.
- ¹⁷ المرجع نفسه، ص117.
- ¹⁸ حمد الطنطاوي: نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة، ص78. 103.
- ¹⁹ مصطفى صادق الرافعي: تاريخ آداب العرب، تحقيق محمد سعيد العريان، دار الكتاب العربي، بيروت، 1974م، ج1، ص237.
- ²⁰ ينظر: محمد ضاري حمادي: حركة التصحيح اللغوي في العصر الحديث، دار الرشيد للنشر، العراق، 1980م، ص10.
- ²¹ ابن جني: الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتب، القاهرة، 1952م، الجزء الأول، ص100.
- ²² حسن عودة: اللغة والنحو، الاسكندرية، مطبعة رويال، 1952م، ص185.
- ²³ سامي سليمان أحمد: البداية المجهولة لتجديد الدرس النحوي في العصر الحديث (القرن الثامن عشر وكتاب بحث المطالب)، تقديم حسين نصار ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة، الطبعة الأولى، 2004م، ص16 .
- ²⁴ سامي سليمان أحمد: البداية المجهولة لتجديد الدرس النحوي في العصر الحديث، ص16.

²⁵ عبد الرحمان الحاج صالح: أثر اللسانيات في النهوض بمستوى مدرّسي اللغة العربية، مجلة اللسانيات، معهد العلوم اللسانية والصوتية، الجزائر، العدد الرابع، 1974، م ص 21.